مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

مكانة المرأة في بلاد الرافدين
منذ فجر السّلالات

ميادة كيالي
باحثة سورية

2024

- **بحث محكم**
- **قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة**
- 28 مارس 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

مكانة المرأة في بلاد الرافدين
منذ فجر السّلالات

مقدمة:

إن بحث مكانة المرأة في العصور التي تلت العصر الشبيه بالكتابي يقود بالضرورة إلى بعض التفصيل في كل حضارة من حيث عصورها ومن حيث سلالات ملوكها، لسببين؛ الأول حاجتنا لمعرفة طبيعة الحكم وزمانه وسيرورة الأحداث التي ستلعب بشكل أساسي في تحوّل مكانة المرأة وانزياحها، والثاني التمهيد للجزء المهم من التوثيق الذي يعتمد على نصوص القوانين والإصلاحات والتشريعات، فتتحدد مرجعيتها والعصر الذي خرجت فيه، وبالتالي قراءة التغير الذي طرأ عليها لدراسة العلاقة التبادلية بين التشريع وأحوال الاجتماع.

أولاً- لمحة موجزة عن الحضارة السومرية

يشير السواح إلى «أن الثورة الزراعية أعطت البداية الحقيقية لحضارتنا. أما الثورة المدينية، فقد أعطتها أطرها الأولى التي مازالت قائمة في أساسات مجتمعات العصر الحديث؛ ولا شك أن منطقة الشرق الأدنى القديم هي التي حققت هاتين الثورتين بمعزل عن أي تأثير خارجي، وتمت الثورة المدينية، وظهرت المدن الأولى في التاريخ في سومر في وادي الرافدين» (**السواح** 2002: 8).

وجمعت الحضارة السومرية جملة من أهم ركائز الحضارة في التاريخ الإنساني، وفي مقدمتها الكتابة التي كانت السبب الأساسي في حفظ وتدوين الذاكرة الإنسانية، وشهدت تكوين المدن والقوانين والشرائع، والعلاقات الاقتصادية، والفن والموسيقى، فكان أوركاجينا أول مصلح في التاريخ، وكانت آنخيدو-آنا الكاهنة العليا وأول شاعرة في التاريخ، وأول من وقّع باسمه على النصوص.

«وامتد تاريخ السومريين إلى 5000 ق.م، ويرجح الماجدي أن أجداد السومريين هم الذين اكتشفوا المعادن وطوعوها، وهم الذين طوروا أنظمة الزراعة المطرية الشمالية إلى أنظمة زراعية إروائية في الجنوب، وحصل هذا بعد حضارة سامراء، وهي الموطن الشمالي العراقي للسومريين قبل أن يبدأوا هجراتهم مع نهري دجلة والفرات إلى جنوب العراق في الألف الخامس قبل الميلاد» (**الماجدي** 2013: 130).

ومن الضروري رصد تاريخ تكون السلالات الحاكمة، اعتباراً من سومر؛ لأن لهذا علاقته الوثيقة بموضوع البحث، فـ«الانقلاب الذكوري» ترافق مع ثورة المعادن وصناعة الأسلحة والحروب والتوسعات وتشكيل المدن وظهور التشريعات، وإن بشكلها الأولي على هيئة إصلاحات، وهو ما سيلقي الضوء على طبيعة المجتمع والعلاقة ما بين المعبد والقصر، أو بمعنى آخر تاريخ المؤسسة الدينية «الكهانة»، ومن الجدير ذكره أن أولى الإصلاحات التي قام بها أوركاجينا عكست وجود الطبقية في المجتمع، وما يدعم ذلك هو تراكم الثروات والإنتاج الذي أفرزته عصور النيوليتي التي كان المتحكم فيها هو الزراعة والري، ما جعل توزيع الثروة حسب توزيع الأراضي وقربها أو بعدها من مجاري الأنهار، وكانت خاضعة لسلطة المعبد.

ويُقسم تاريخ السومريين بعد اختراع الكتابة إلى ثلاثة عصور:

1- العصر القديم (عصر فجر السلالات السومرية (0732-0092) ق.م):

«وهو العصر الذي تلا العصر شبيه الكتابي، وقد أطلق عليه عدة تسميات، منها تسمية الأستاذ **فرنكفورت** (h.frankfort) عصر فجر السلالات (early dynastic period)، وكذلك أطلق عليه ‹عصر ما قبل سرجون› لكونه سبق حكم الملك الآكدي سرجون و‹عصر اللِّبن› لشيوعه في البناء، والباحثون الألمان أطلقوا عليه اسم ‹عصر لجش› نسبة إلى مدينة لجش السومرية» (**باقر، ج1** 2009: 280).

وعكست تلك التسميات مختلف جوانب التطور الذي حصل فيها؛ فعصر السلالات ينمّ عن تطور سياسي ظهرت فيه السلالات الحاكمة، وعصر اللِّبْن يدل على التطور العمراني وبناء المدن، وهذا أيضاً كان السبب في إطلاق اسم عصر «دول المدن» (city states)، ولكن بغض النظر عن التسميات المختلفة، فقد كان هذا العصر عصر الحضارة السومرية بامتياز، والتي كانت أساس تكوين حضارة الرافدين وظهور أبرز أوجهها ومقوماتها، ودامت هذه الفترة ما بين خمسة أو أربعة قرون ما بين نهاية حضارة جمدت نصر حتى بداية الحكم الأكدي، حيث سادت اللغة والثقافة السومرية وحكمت فيه السلالات السومرية دويلات انتشرت في وسط وجنوب وادي الرافدين.

قسم الباحثون أطوار هذا العصر إلى ثلاثة عصور حسب السلالات الحاكمة التي حكمت كل عصر منها، كما يظهرها الجدول رقم 4، والذي تم إعداده اعتماداً على كتاب طه باقر (**باقر، ج1** 2009: 279-290).

عصر فجر السلالات الأول

وهو مرحلة انتقالية من حضارة جمدت نصر الشبيهة بالكتابية إلى العصر الكتابي، معرفتنا بهذا العصر مقتصرة على نتائج التنقيبات في منطقة ديالي وينسب إليه نوع من الفخار اسمه (الفخار القرمزي) واستعمال اللبن المستوي-المحدب في البناء، يشير طه باقر إلى احتمال أن نوح الطوفان البابلي الوارد في الأساطير السومرية والبابلية كان يعيش في هذا العصر (2900-2700 ق.م).

عصر فجر السلالات الثاني

ابتدأ العصر التأريخي الصحيح في هذه الحقبة، وراح سكان وادي الرافدين يدونون بالمسمارية المتطورة شؤون حياتهم، وشهد هذا العصر ازدياداً ملحوظاً في التطور العمراني والمديني وظهور الحياة السياسية على هيئة دول مدن، ومن بعض السلالات الحاكمة في إثبات الملوك السومريين، كيش الأولى والوركاء الأولى، ويمكن تحديد زمن هذا الطور بالسنين بوجه تقريبي من حدود (2700 إلى 2550 ق.م)، وتميز هذا الطور من الناحية

الأثرية والحضارية بطائفة من الآثار المادية والأبنية العامة كالمعابد والقصور، كما كشفت عنه المواقع الأثرية في ديالي. وتطور فن التعدين بشكل لافت، وتحول فن النحت مع نهاية هذا الطور ليتحول إلى فن واقعي بعد أن كان تجريدياً.

عصر فجر السلالات الثالث

في هذا الطور بلغت حضارة وادي الرافدين أوج الازدهار والنضج في مقوماتها الأساسية، وخاصة وفرة النصوص الكتابية من حكام السلالات وملوكها، وإليه تعود القبور الشهيرة. وقد ارتأى طه باقر تقسيم هذا الطور المهم إلى مرحلتين أو دورين؛ وهما مرحلة سلالة أور الأولى (ميسا نيبدا) وتميزها المقبرة الملكية الشهيرة في «أور»، ومرحلة أور الثانية (حكام لجش)؛ أي سلالة «أور نانشة»، ويمتد هذا الطور زمنياً ما بين (2500-2370) ق.م.

2- العصر الوسيط - عصر الهيمنة الأكدية والكوتية (1732-0212 ق.م):

وقد أسسها الملك سرجون في (2334 - 2154) أو (2371- 2230) ق.م[1]؛ أي إنّها دامت أكثر من قرن ونصف القرن، وشمل حكمها القطر كله، واتسع بالفتوحات الخارجية الى الأقطار المجاورة، والأكاديون ساميون نزحوا منذ أقدم العصور التاريخية، وعاشوا جنباً إلى جنب مع الأقوام الأخرى، وفي مقدمتهم السومريون. وفي غضون ذلك، تبدلت ملامح حضارة وادي الرافدين سياسياً من الناحية اللغوية والقومية والسياسية، وظهرت مقومات حضارية جديدة، اللغة الآكدية وهي سامية شرقية بدأت تأخذ المكان البارز في اللغة الرسمية. ويعد الملك «نرام سين-محبوب الإله سين» من أشهر حكام السلالة، وهو حفيد سرجون العظيم وله إنجازات على الصعيد الحربي والتشريعي. ويشير باقر إلى تفرد هذا الملك ببدعتين؛ ما يهمنا فيهما الأولى المتمثلة في أنه كان يصدر كتابة اسمه بالعلامة الدالة على الألوهية، وسار على هذا العرف كلّ من جاء من بعده، وأكثر من ذلك أنه صار يلقب نفسه بأنه «إله أكاده»، وكان هذا يعد بمثابة كفر وخروج على العرف الديني؛ فمن سبقوه وفي أقصى تعاظمهم لم يتجاوزوا حد التقديس والتأليه وكونهم نواباً عن الآلهة في حكم البشر (**انظر باقر، ج1** 2009: 385-401).

«بعد سقوط الإمبراطورية الأكادية على يد البرابرة الكوتيين المنحدرين من بلاد عيلام الشرقية، دخلت البلاد مرحلة مظلمة استمرت حوالي القرن، ونجحت سلالات سومرية في لجش من تقوية نفوذها وبسط سيطرتها على أجزاء واسعة من القطر، وكان أول ملوكها ‹لوكال أو شمكال› وكذلك الملك العظيم ‹أور- بابا› الذي أنجز الكثير من الأعمال العمرانية، وعيّن ابنته كاهنة عليا في معبد الإله القمر ‹ننا›، وظهرت في عهده مدرسة جديدة في فن النحت والأدب السومريين بلغت ذروتها في عهد ‹جودية› أو ‹كودية›. وتعد النصوص

1 - إيراد أكثر من تأريخ للعهد بسبب اختلاف المؤرخين في تواريخ الحكم (باقر 2009: 392).

الأدبية التي خلفها كودية بعثاً جديداً للأدب السومري، ومثلت اللغة السومرية في أوج نضجها» (**انظر** باقر، ج1 2009: 410-412).

3- العصر الحديث (سلالة أور الثالثة 3112-6002 ق.م):

«قامت سلالة أور الثالثة، والتي دام حكمها زهاء القرن الواحد (2112-2004 ق.م) وحكم منها خمسة ملوك، وأعيدت في عهدهم وحدة البلاد السياسية من بعد فترة حكم الكوتيين المظلمة، وهؤلاء الملوك هم:

أ- «أور-نمو»: ودام حكمه ثماني عشرة سنة، وهو صاحب الشريعة الشهيرة التي وجدت نسخ غير مكتملة منها في مدينة ‹ نفر›.

ب- شولكي: وهو ابن أور نمو، وحكم زهاء ثماني وأربعين سنة، واهتم بالبناء والإعمار، ولقب أيضاً بملك الجهات الأربع، وتم تقديسه بطريقة بالغة حد التأليه أيضاً.

ت- أمار سين: وهو ابن شولكي، ودام حكمه سبع سنوات، وسار على خطى أبيه في العمران.

ث- شو- سين: ربما كان أخ أمار سين، وحكم تسع سنوات، وتوطدت إبّان حكمه أركان الدولة واستمر في تجديد المعابد.

ج- أبي-سين: وهو آخر سلالة أور الثالثة، وقد خلف أباه شوسين، وحكم أربعاً وعشرين سنة، وبدأت تدبّ خلال سنوات حكمه بوادر الانفصال في الإقليم وعدم الاعتراف بشرعية أور كمركز، بالإضافة إلى تفاقم خطر العيلاميين واندفاع الأقوام الأمورية من الشمال الغربي للقطر» (**انظر باقر، ج1** 2009: 416-432).

«ولعبت المكانة الاجتماعية للمرأة في تلك العصور، والصورة المرسومة لها في ضمير الجماعة دوراً كبيراً في صياغة التصور الديني والغيبي الأول، وفي ولادة الأسطورة الأولى؛ فمع انتقال السلطة في المجتمع نهائياً إلى الرجل وتكوّن دولة المدينة القوية، ذات النظام المركزي والهرم السلطوي والطبقي المتسلسل الصارم الذي قام على أنقاض النظام الزراعي البسيط، يظهر الآلهة الذكور ويتشكل مجمع الآلهة بزعامة الإله الأكبر، بعد أن كانت الإلهة الواحدة الأم في العصر النيوليتي، ولا يشاركها في سلطانها إلا ابنها الذي نشز منها، وكان مقدمة لظهور بقية الآلهة الذكور» (**السواح** 2002: 25).

ومع أن هذا الانزياح تم بشكل أوسع كلما ابتعدنا عن عصر سومر وآكد، ولكن يبقى أن المرأة تمتعت بكثير من الاعتبار والعديد من الحقوق التي لم يتسنَّ لها الحصول عليها حتى في المدنيّة المعاصرة؛ فقد استمرت حصانتها المادية في الزواج كواحدة من أهم مظاهر الاستقلالية المالية، فالبائنة التي تفرض على والدها لتكون لها في زواجها وتبقى تحت تصرفها كانت حماية لها، فضلاً عما يقدمه الزوج، فهذه استقلالية للمرأة بملكيتها

تمنحها بعداً اقتصادياً يعزز مكانتها في مؤسسة الزواج، وحتى التي توهب نفسها للمعبد ولا يمكنها أن تتزوج تُمنح بائنة الزواج، وهذا يعكس أمرين؛ وهما أن البائنة حق مكتسب للمرأة سواء تزوجت أم لا، وبأن وهبها نفسها لتكون للمعبد ولطقس البغاء لا يعني أبداً أنها تمارس الدعارة، ولا يعني أنها صارت غانية، بل هي تقدم طقساً دينياً تعبّدياً له بعده الروحي، وله اعتباره على مستوى المجتمع وعلى مستوى المعبد، وهذا ما سيأتي عليه البحث في المطلب الثالث ومن خلال النصوص والأساطير في الفصل القادم.

ثانياً- لمحة موجزة عن الحضارة البابلية والآشورية

«يمتد عصر الحضارة البابلية من الفترة التي أعقبت سقوط إمبراطورية ‹أور› (سلالة أور الثالثة) في حدود 2004 ق.م، وكان عصر دول مدن أو دويلات حكمت متعاصرة ومتحاربة إلى أن توحدت في عهد حمورابي (1792-1750ق.م)، وتميز هذا العصر بدخول الهجرات من الأقوام السامية، وطغى التحول اللغوي والقومي في العراق إلى السامية على الطابع السومري، وانتهى السومريون من الناحية السياسية، ولعل أبرز النتائج التي استتبعت زوال السومريين سياسياً، واتساع رقعة التدوين باللغة الآكدية هو ظهور حركة واسعة في التدوين والتأليف والنقل والترجمة، وكأنهم شعروا بزوال الثقافة السومرية، فأخذوا يدونون مآثرها وينقلون النصوص الأدبية واللغوية والدينية، ومنها ما دوّن بالسومرية والكثير تم ترجمته وتحريره لإنشاء قطع أدبية جديدة باللغة البابلية على هيئة نتاج فني أدبي جديد مثل ملحمة جلجامش وأساطير الخليقة» (**باقر، ج1** 2009: 480).

ونظراً لكون ما سيتبع من البحث في الحديث عن التشريع وعن الدين والأساطير، كان لابد من ذكر السلالات التي حكمت في تاريخ بابل القديم خاصة وآشور، حتى يكون هناك توضيح دقيق لصلة الأسماء المختلفة للنساء اللواتي شغلنَ مناصب عدة في الكهانة وفي الحكم وفي الآداب، وكذلك في تحديد مرجعية التشريعات التي طاولت المرأة والأسرة، وعكست أحوالها ومكانتها وأهميتها؛ فالمادة القانونية التي تركتها لنا حضارات الرافدين ساعدت بل وشكلت المادة الأهم التي عكست طبيعة العلاقات الاجتماعية ومكانة المرأة، وانزياح هذه المكانة مع العصور وخاصة كلما اتجهت نحو النهايات، ونقصد بها سقوط بابل، حيث نجد أن الاتجاه بالتشريع والقوانين ينحو باتجاه المزيد من سلب المرأة حقوقاً كانت تتمتع بها من عصر لآخر، بل وحتى المسميات والمفاهيم العديدة تتخذ معاني جديدة مرتبطة بالمكانة الجديدة؛ فالكاهنة التي كانت تقدم طقس الجنس المقدس كواحد من الخدمات الدينية في ظل دين الإلهة ستصبح بغياً، ويتحول الجنس المقدس إلى جنس تجاري «دعارة»، وتتحول هدية العرس إلى ثمن للعروس، وتتحول البائنة من أملاك يقدمها والد العروس لتحميها وتحصن مكانتها الاقتصادية واستقلاليتها إلى هدايا وموائد وولائم في يوم عرسها.

وكسائر حضارات الرافدين، مرَ التاريخ البابلي بعصور ثلاثة قديم ووسيط وحديث، وكذلك دولة آشور التي عاصرت الحضارات الأخرى وتبادلت الصراع معها، فانضوت تحت راية حمورابي حيناً وتسيدت تحت راية

شمشي أدد حيناً، وهكذا إلى أن انتهى العصر البابلي الحديث الذي رسم ملامحه نبوخذ نصر كآخر قائد متميز بقيادته وبحكمه، لتنحدر الحضارة البابلية بعده رويداً رويداً نحو الضعف والانحلال لتسقط في عام 539 ق.م.

«يطلق اسم العصر البابلي القديم على الفترة الزمنية الواقعة ما بين نهاية سلالة أور الثالثة (في حدود 2004 ق.م) حتى نهاية سلالة بابل الأولى (في حدود 1594 ق.م) وتأسيس الدولة الكيشية أو سلالة بابل الثالثة. وابتدأت بتدفق موجات الآموريين من بوادي الشام والجهات العليا من الفرات وتحطيم الكيان السياسي في وادي الرافدين وقيام عدة دويلات صغيرة متحاربة ظلت حتى ظهور الملك البابلي الشهير ‹حمورابي› في حدود 1763 ق.م» (**باقر، ج1** 2009: 441).

«وخلال حكم شمشي-أدد الآشوري، وصل حمورابي إلى عرش بابل، التي لم تكن في ذلك الحين سوى مملكة صغيرة في شمال البلاد، ورغم أنّه بقي خلال العقد الأول من حكمه شخصية غير معروفة، فقد سمح له التحالف مع شمشي-أدد القوي إما كشريك أصغر أو تابع بأن يقوم ببعض التوسعات، وبعد وفاة شمشي-أدد أطلق حمورابي يده وأزاح عنه القيود في مواجهة خصومه، وبالصبر الذي تمتع به والدبلوماسية العالية والسياسة الحكيمة أصبح أعظم قوة في وادي الرافدين، وسيطر على مساحة مماثلة لمساحة إمبراطورية أور الثالثة القديمة» (**ساكز** 2009: 148).

اشتهر حمورابي بقوانينه التشريعية التي أخذت شهرة أكبر بكثير من أي قوانين أخرى سنّها ملوك من قبله، رغم أن هناك العديد من القوانين التي سبقته، حيث تم العثور عليها كاملة، في حين وصلت أجزاء متقطعة ومبعثرة من القوانين الأخرى.

ويشير «**ماكنيل وسيدلر**» إلى أن «قوانين عديدة سابقة لحمورابي لم تصل منها إلا أشتات، مثل قوانين أوركاجينا في لجش (2360 ق.م) وسرجون الأكدي (2300 ق.م) وأورنمو في مدينة أور (2100 ق.م)، بالإضافة إلى قوانين لبت عشتار ملك إيسين (1930 ق.م)، والتي كانت نوعاً ما أكثر شمولية، والتي وصلنا منها ثمانية وثلاثون قانوناً ومجموعة مدينة إشنونا التي تحتوي ستين قانوناً، والتي سبقت في تاريخها حمورابي بعدة عشرات من السنين» (**مجموعة مؤلفين، ماكنيل وسيدلر** 1993: 9).

مرت دولة آشور أيضاً بمراحل مشابهة لبابل، وكانت دولة آشور كلمة أطلقت على أقدم مراكز الآشوريين أي مدينة آشور، وسُمي بها أيضا إلههم القومي «آشور» منذ طلائع الألف الثالث قبل الميلاد، انتهت حضارات وادي الرافدين بالعصر البابلي الحديث (626-539 ق.م)، والتي دامت زهاء القرن الواحد، وكان آخر عهد مستقل ومزدهر لحضارة بلاد الرافدين القديمة، وفي الوقت نفسه آخرها. ونوجز المادة التاريخية التي أوردها طه باقر عن سلالات بابل القديم (**انظر باقر، ج1** 2009: 465-447).

ثالثاً- مكانة المرأة على الصعيد الاجتماعي

على الرغم من أن التغيير في مكانة المرأة وانزياح مكانتها كإلهة بدأ من العصر الحجري النحاسي، كما يفترضه البحث، غير أنَّ انزياح مكانتها بالكامل على الصعيدين الحضاري والميثي لم يحصل خلال فترة قصيرة، بل تمّ ذلك عبر فترة امتدت لتغطي عصور حضارات كاملة، وصولاً إلى غياب دور المرأة بالكامل على صعيد القيادة والحكم ومن ثم المؤسسة الدينية، وكذلك تدني مكانتها الإنسانية، والاكتفاء بأن لها دوراً منحصراً في الحمل والولادة، عدا عن التمييز بسبب الجنس وتحميلها إثم الخطيئة الأولى وغضب الإله.

وسيتتبّع البحث مؤشرات مكانة المرأة المتميزة التي أسست لها العصور السابقة لاختراع الكتابة، والتي ساهمت فيها المرأة بالاستقرار الاقتصادي وبناء المدن الأولى، وهو ما ترك آثاره الإيجابية على عصور سومر وأكد وبابل وآشور، رُغم تشكل النظام الأبوي على نحو واضح، وسيطرة الرجل على الأسرة، وسيطرة الملك على مقاليد الحكم وبموافقة الإله، حيث كانت الإصلاحات والقوانين التشريعية التي تأخذ قوتها من قوة الملك وإحكام سيطرته على مقاليد الحكم.

واحتفظت المرأة لنفسها بالاستقلالية الاقتصادية، ولمعت في ميدان الأدب والكهانة والحكم وهذا كان واضحاً، وبخاصة في الحضارة السومرية التي سجلت نسباً حضارية مرتفعة في الرقي بدور المرأة وإبراز مكانتها الاجتماعية والدينية، فهي الإلهة الأم، مصدر الحياة وأصل الموجودات، وهي المقدسة والكاهنة، ما انعكس على المستوى الاجتماعي، فتمتعت بحقوق واسعة وصلت حد تعدد الأزواج وتبنِّي الأطفال. وعلى الصعيد الاقتصادي، تميزت بحقوق التملك والاشتغال بالتجارة، وتقاضت أجر الرجل نفسه في أعمال الحقول. وعلى الصعيد الثقافي اشتهرت ككاتبة وعازفة موسيقى، وتقلَّدت المناصب العليا.

بيد أن هذه المكانة بدأت تتراجع مع زحف التسلط الذكوري على مجتمعات وادي الرافدين وظهور العنف والفتوحات والحروب. «ورغم أن النصوص القديمة archaic الأولى التي جاءت نماذج منها من العصر الشبيه بالكتابي من مناطق مختلفة، كانت عبارة عن سجلات اقتصادية بالدرجة الأولى، وأن ما فيها من معلومات عن المرأة نزر بشكل واضح. وما لدينا من وثائق مكتوبة تلقي الضوء على بعض النواحي الاجتماعية للمرأة تعود إلى عصر الحاكم أوركاجينا (2378 -2371 ق.م) آخر أمراء سلالة لجش» (**عقراوي** 1978: 30).

إلا أن المرحلة اللاحقة من تاريخ بلاد الرافدين، وبخاصة بعد اختراع الكتابة وصلنا منها مخزون كبير من الآثار التي ساعدت أيضاً في كشف حضارة سومر بصورة أوضح، حيث كانت الأساطير تنسج حكاية العالم القدسي وتعزز أدوار الآلهة، ورغم أن أساطير سومر لم تصل بشكل كامل، إلا أن حركة الترجمة والنسخ والتدوين التي تمت في العصور اللاحقة ساهمت في الوصول لأساطير سومر وفهمها بشكل أكبر، إضافة لنصوص القوانين والتشريعات والأدب مع بقايا المعابد والأختام والقبور الملكية، حيث اكتملت الصورة بكل معانيها. وتركت لنا

العصور البابلية واحدة من كنوز التاريخ، وهي الإينوما إيليش التي تكمن أهميتها في العثور عليها بألواحها السبعة شبه كاملة، إضافة إلى النص التشريعي المتكامل الأول في التاريخ المعروف باسم شريعة حمورابي، والتي وصلتنا كاملة، وإن كان هذا لا يستبعد استفادة حمورابي من القوانين التي سبقته في سومر وأكد.

ولعل من الأهمية التنويه إلى أن أسطورة الخليقة البابلية، كما سيتبيّن، لاحقاً ليست، في جوهرها سوى إعادة تأليف لأسطورة الخليقة السومرية لكن بروح العصر البابلي، ما عكس انزياح مكانة الأنثى بالشكل الكامل من ساحة الألوهة المقدسة، وبالتالي ستكون أسطورة الخليقة معززة لظهور الإله مردوخ المتفرد من ناحية، ولانزياح مكانة المرأة في المجتمع على صعيد العائلة، وعلى صعيد السلطة، وعلى الصعيد الديني، بل حتى إن «فكرة الخلق مع مردوخ تحولت من الفرج إلى الفم» (**الربيعو** 1995: 152). ويؤيده في ذلك السواح الذي يقول إن «عشتار لم تخلق مظاهر الطبيعة بكلمتها، بل بتحول جسدها الذي نشأت عنه السموات والأرض. إن حركة الطبيعة، جسد الأم الكبرى، لتستوعبها حركة الجسد الإنساني وسكونية العقل، وما يقوم به دراويش المتصوفة المسلمين اليوم من رقص دوراني على إيقاع الموسيقى ليصلنا بالتصوف العشتاري القديم، حيث يستنير الجسد بأنوار الرحمن، وهو في ذروة أفراحه الأرضية» (**السواح** 2002: 242).

اعتمد البحث تقسيم هذا المطلب إلى أربعة عناصر تشمل الصعيد العائلي والثقافي والاقتصادي والسياسي، وعزل الصعيد الديني ليكون من خلال المطلب الرابع في المبحث الثاني لارتباطه بالأسطورة.

أ- على الصعيد العائلي

يعتقد بعض الباحثين أن تشعب حياة الفرد في وادي الرافدين، مع تطور الزراعة، واتساع الملكية، وتشكل المدن، وتشابك مصالح السكان والمعبد والكهنة، كان السبب من وراء نشوء تشريعات لحماية الفرد في المجتمع، وتنظيم شؤون الحياة في دولة المدينة (city-state)، ولكن في إمكان المراقب أن يلحظ بأن تغير الظروف الاقتصادية، وتطور المدن، وتراكم الثروات، وبدء الحروب، والتوسع العسكري كانت له تبعاته على مستوى التشريع في العائلة التي شكلت النواة الأساسية للتشريع في النظام الأبوي.

واتخذت القوانين والشرائع في البداية شكل إصلاحات، فقد وضع أوركاجينا (2378-2371 ق.م) الحاكم السومري لسلالة لجش إصلاحات اجتماعية تنظم حياة الأسرة ومكانة المرأة في مجتمع دولة المدينة السومرية، إضافة إلى تنظيمه الشؤون الاقتصادية وحده، من دون سيطرة المعبد وكهنته على شؤون الدولة المالية.

برز أور-كاجينا كأول مصلح في التاريخ، حيث عاهد الإله ننجرسو على أن لا يترك «**الضعيف والأرملة للقوي**» (**باقر، ج1** 2009: 356)، وهذا مؤشر واضح على أن المرأة شكلت محوراً أساسياً في تعهدات الملك أمام الإله كبرنامج عمل يتعهد الإيفاء به لشعبه.

لقد ظهرت في حضارات وادي الرافدين خمسة ألواح قوانين متميزة، وما جمع بينها أنها كانت قوانين لملوك السلالات المختلفة، وكانت تكتب على الألواح الطينية أو على المسلات، وبدأت بشكل إصلاحات بعهد أوركاجينا، لتصبح قوانين فيما بعد، فكانت على التوالي: إصلاحات أوركاجينا، ثم قوانين أور نمّو، فقوانين لبت عشتار، وقوانين أشنونا، ثم قانون حمورابي، والقوانين الآشورية التي اعتمدت على الكثير من مضمون شريعة حمورابي، مع بعض الإضافات والتشديد في بعض الأحكام، ما يعكس الحالة المتقدمة من الرجل المحارب القوي الذي انعكس في عقوبات متشددة.

«وبناءً على النسخ الناقصة للقوانين المكتوبة في بابل قبل حمورابي، والتي تم اكتشافها حتى الآن والتي يغلب الظن أنها غير كاملة، فمن الممكن أن نحكم على الحد الذي استفاد منه حمورابي من أعمال من سبقوه، إذ إن ثلاثة أرباع قوانين إشنونا قد أعيد تطبيقها إلى حد ما في عدة قوانين أولية من مجموعة حمورابي، لكن من الصعب أن نحدد عدد المصادر الأخرى التي قد كان من الممكن أن تكون بمتناول مشرّعيه» (**مجموعة مؤلفين، ماكنيل وسيدلر** 1993: 10).

لقد حوت شرائع بلادين الرافدين كل ما يتعلق بالتشريع المدني المتعلق بالزواج واشتراطاته ومتعلقاته المالية، والطلاق والتبني والخيانة والهجران والنكوس في عهد الزواج والميراث وحقوق الأرملة والتي سيكون هناك توقف عند بعضها في نصوص مختارة من الشرائع في الفصل الثاني.

إن المدخل الحقيقي لفهم موقع المرأة في الحضارات من سومر إلى آشور مروراً بأكد وبابل قد يكون التشريعات، فهي تعكس بنية المجتمع وطبيعة العلاقات وتعكس أيضاً، بطريقة غير مباشرة، ما كان سائداً في فترات سابقة. فحين يُشَرّع أوركاجينا في فترة تعود لأكثر من ألفي سنة قبل الميلاد بأن المرأة إن تزوجت أكثر من رجل في آنٍ واحد ستعاقب، يرى جمهور من الباحثين بأنه مؤشر على أن الزواج المفتوح للمرأة كان مشرعاً في الحقب السابقة، وهذا قد يتناسب مع ما ذهب إليه البحث من كون المجتمع كان أمومياً تتمتع فيه المرأة بالمكانة المتميزة السياسية والدينية وحتى الاقتصادية، فكون النسب يعود للأم فلن يؤثر ذلك على مقاييس انتقال الثروة، باعتبارها تتم من الأم إلى الأبناء، وقد يكون هذا ما جعل المجتمع يتحول إلى سحب النسب من يد المرأة ووضعه في يد الرجل، وبالتالي تطلب الأمر أن يُحدد الزواج برجل واحد، وانتقلت الملكية شيئاً فشيئاً لتكون من نسله.

ألمحت عقراوي للأمر لدى استعراضها الوضع العائلي للمرأة منذ حضارة سومر، فأشارت إلى «أن تعدُّد الأزواج للمرأة الواحدة كان مُباحاً، إلى أن حرَّمه أوركاجينا وفرض عقوبة الرجم بالحجارة على من يثبت زواجها بأكثر من رجل واحد» (**انظر عقراوي** 1978: 20-23).

وقد يتفق مع هذا الرأي ما ذهب إليه «**ول ديورانت**» عندما طرح سؤالاً مفتاحياً، مفاده «ما الذي حدا بالناس أن يستبدلوا الحالة البدائية التي كان الزواج فيها أقرب إلى الفوضى، زواجاً فردياً؟ وفي محاولته الإجابة عن هذا الطرح، يحيل الموضوع إلى العامل الاقتصادي المرتبط بنشوء نظام الملكية؛ فالزواج الفردي جاء نتيجة لرغبة الرجل في أن يسترق لنفسه رقيقاً بثمن رخيص، وفي نفس الوقت لعدم توريث ملكه لغيره» (**ديورانت ج2** 1988: 70).

ولعل أهم مفصل من مفاصل «الانقلاب الذكوري» أن العصور النيوليتية، كما اتفق الباحثون، شهدت سيادة النظام الأمومي، وكان النسب يعود للأم رغم أن العديد من الباحثين كان لوقت قريب ولا يزال يؤمن بأن المجتمع نشأ أبوياً، معتبرين الرجل صياداً وقادراً على القيادة بالفطرة وبحكم قوته البيولوجية، وهو ما قوضته العديد من النظريات، كما أشارت إلى ذلك «**غيردا لرنر**» في كتابها «نشأة النظام الأبوي»، حيث بيّنت أن العديد من الدراسات أثبتت بأن الغذاء الذي يحتاجه الأفراد كان يتم تأمينه من الطرائد الصغيرة التي كانت المرأة والأطفال يتولون القيام بجمعها. وكون الرجل اختص بالحروب فذلك ليس لتميزه جسدياً، بل لكون المرأة كانت مصدر النمو والتمدد للقبيلة، فمع معدل أعمار لا يتجاوز الثلاثينيات، كما تشير الأبحاث لتلك الحقبة، انتبه الرجل إلى حاجته للحفاظ على الأنثى؛ لأنها الحماية والضمان لإنجاب الأبناء والكثرة العددية.

وتتبنى **لرنر** نظرية الأنثروبولوجي **كلود ليفي ستروس** بأن تبادل النساء في المجتمعات القبلية كان السبب الرئيس في خضوعهن، وهذا يضاف إلى ما تعرضه عن «**س.د. دارلنغتون**» الذي يرى الزواج من الأباعد إبداعاً ثقافياً وصار مقبولاً لأن فيه فائدة نشوئية، فهناك ميول غريزية عند البشر للتحكم في السكان قصد الوصول للكثافة المثلى، وتنجز القبائل هذا بطقوس تضع الذكور والإناث في أدوار جنسية ملائمة، وعبر اللجوء إلى الوأد والإجهاض والمثلية الجنسية حين يقتضي الأمر، وبحسب هذا الاستنتاج النشوئي جوهرياً، جعل التحكم في السكان السيطرة على جنسانية الأنثى إلزامية (**انظر لرنر** 2013: 103).

إن إخضاع المرأة بدأ بالجنس؛ لأن اكتشاف الرجل دوره في العملية الجنسية أتى في فترة لاحقة. وساهم تفرد المرأة في الولادة وحدوث الطمث معها، وتبدل أحوالها وعلاقتها بالأطفال في تشكيل هالة حولها من التعظيم جعلت منها الصورة، في المتخيل الإنساني، عن الإله، ولكن ومع تدجين الحيوانات اكتشف الرجل ذلك من خلال مراقبة المشهد، بل وأكثر من ذلك فإن العديد من الباحثين المتخصصين يعزون ميول الرجال لاغتصاب النساء إلى مراقبتهم الطريقة الوحشية التي تقوم بها الحيوانات بالعملية الجنسية، والتي أسست للعنف وللتحكم في السيطرة على النساء بالجنس، وأسست للتفوق الذكوري.

«لقد قدمَّ المنظرون فرضيات متنوعة ليشرحوا نشوء الرجل المحارب، منها ما عزي لسبب هرموني بيولوجي، ومنها ما هو سيكولوجي للتعويض عن عدم مقدرته بالإنجاب فيعوض ذلك بالهيمنة الجنسية على المرأة والاعتداء على الآخرين، وقد رأى فرويد أن جذر العدوانية الذكرية يكمن في المنافسة الأوديبية بين الأب

والابن على حبّ الأم، وسلّم أن الرجال بنوا الحضارة لكي يعوضوا إحباط غرائزهم الجنسية في الطفولة. وتأثرت بذلك الكثير من دعاة المذهب النسوي مثل **سوزان براونميلر** التي قالت إن قدرة الرجال على اغتصاب النساء قادت إلى ميلهم لاغتصاب النساء، وهذا قاد للتفوق الذكوري، بينما ترى **إليزابيت فيشر**، على نحو بارع، أن التزاوج الإكراهي للحيوانات قاد الرجال إلى فكرة اغتصاب النساء، وزعمت أن الوحشية والعنف المرتبطين بتدجين الحيوانات قادا إلى هيمنة الرجال الجنسية ومأسسا للعنف. وقدمت في وقت لاحق ‹**ماري أوبراين**› تفسيراً متقناً لأصل الهيمنة الذكرية في حاجة الرجال السيكولوجية لكي يعوّضوا عدم قدرتهم على الإنجاب عبر إنشاء مؤسسات هيمنة، ومثل **فيشر** أرجعت ذلك إلى فترة اكتشاف تدجين الحيوانات» (**ليرنر** 2013: 101).

إذن، الرجل أخضع المرأة واستفاد من الزواج التبادلي لتقوية نفوذه، وشيئا فشيئاً بدأت ترتيبات القرابة العائلية أو المتحدرة من الأم تنتقل إلى الأب، وبالتالي تطورت الملكية الخاصة، وإن كان الترتيب بين من الذي حدث أولاً كان موقع خلاف، إلا أن تراكم الفائض وظهور الطبقات وإنتاج السلع والتجارة وبزوغ النخب العسكرية أدى إلى انتقال الأنساب إلى العائلات الأبوية، ما أدى إلى إخضاع النساء.

وفي السياق ذاته، وبالعودة لبلاد الرافدين، وفي تحليله لملحمة جلجامش، يشير علي الربيعو إلى «أن نص ملحمة جلجامش وعبر سياقه المتنامي بسرعة ينزع باتجاه فرض قيود على الجنس المطلق الذي تجسده عشتار في سلوكها، فتسقط الملحمة في براثن جنسانية تربط الجنس بالإنجاب وتستبعد من دائرتها كل معمودية بالجنس، وكل محاولة للذة خارج الأطر الجديدة التي عرّفها الإله الجديد أو لنقل البطرك الجديد. فالزواج والذي هو شكل ثقافي ووليد صيرورة تاريخية وتطور تاريخي طويل يتجاوز العلاقة الطبيعية ويتبارك بمباركة البطرك ‹الإله المنتصر على الإلهة الأنثى›، وعليه فهذا التقييد يخدم مصالح نظام اجتماعي ذكوري ويقود إلى أن تنزل المرأة في المرتبة الاجتماعية وتنعزل في البيت فتفتقر بانحصارها في الإطار المنزلي إلى حرية الوصول إلى أنواع السلطة أو المركز أو القيمة الثقافية التي هي من امتيازات الرجل» (**الربيعو** 1995: 153).

«وحافظ قانون حمورابي على الأسرة وعلى الأحادية الزوجية، إلا في حالات خاصة لاعتبارات الإرث، وأولاد الرجل من الأمة لا يصبحون أحراراً إلا إذا تبناهم رسمياً، ولا تصير المرأة زوجة إلا بعقد مكتوب، يقدم العريس هدية الزواج للمرأة تنفعها إذا مات، بينما يقدم والد العروس بائنة هي في الجوهر أكبر من المهر، وهي تمثل حصتها في ميراث أبيها، وتدفع أيضاً للابنة إن صارت كاهنة، وبذلك يكون الزواج بالنسبة إلى المرأة مجالاً للملكية الخاصة بها، والواجب الأساسي للزوجة هو الإنجاب، فإن لم تقدر عليه كان بإمكانه أن يطلقها» (**ساكز** 2009: 159).

وباستثناء ذلك، يُلاحظ أن التشريعات اجتهدت لتشكّل نوعاً من الحماية المالية للمرأة؛ ففي شريعة **أور-نمّو** عدد من المواد القانونية تعالج حقوق المرأة البكر والمتزوجة والمطلقة. ولم تغفل شريعتا لبت- عشتار

وأشنونا، المرأة وشؤونها العائلية، وخصصت شريعة حمورابي أكثر من ثلاثين مادة قانونية (المواد 127-194) لشؤون الأسرة، والمرأة بالذات، من زواج وطلاق وإرث وتبنٍ، وحمايتها من أنواع الاعتداء.

لقد شكلت الأسرة كياناً مهماً منذ عصر سومر، وظهرت قوانين الزواج والطلاق والتبني والمهر و«البائنة» والخطبة والهدايا، والمعيل للمرأة؛ إذ أظهر النسق الاجتماعي كل الحرص على وجود عائل للمرأة وبشكل إلزامي، وضمن لها حقوقها الزوجية في حالة الطلاق أو وفاة الأب أو الزوج.

«وبالنسبة إلى الرجل أيضاً كان أساس الزواج في حضارة وادي الرافدين يقتصر على واحدة، وهي التي تدعى الزوجة الشرعية (المختارة hirtu). وكانت الفتاة خاضعة لسلطة الأب، حيث لم يكن بإمكانها الزواج دون موافقته، ليس هذا فحسب، بل كانت موافقة الأم واجبة أيضاً ولا يتم العقد من دونها، فضلاً عن أن كل ما يتم الاتفاق عليه يعتبر ملزماً ولا يجوز التراجع عنه» (**عقراوي** 1978: 60).

ولكن الرجل تمتع بوجود امتيازات عديدة تتلاءم مع النظام الأبوي الذي منحه التميز والسيطرة، فله محظية ويمكن أن ترتقي لتصبح زوجة، وفي حال عدم إنجاب زوجته يمكن أن تكون له جارية تلد الأولاد وتكون بمرتبة ثانية من بعد الزوجة، كما سيأتي ذكره في موضع آخر لاحق.

لقد تم قوننة الزواج، وبالتالي الطلاق وجميع حيثياتهما، بصورة حفظت استقلالاً مالياً للمرأة، وحفظت حقوقها وحقوق أبنائها في حالة الطلاق والترمل، ولا شك في أن القوانين ميزت بين حق الزوج وحق الزوجة، ومنحت الرجل ميزات أكبر، لكنها في الغالب تناسقت مع مجتمع أبوي بكل معنى الكلمة، لكنه يحتفظ بهالة القدسية للإلهة الأنثى وللكاهنة على أنواعها. لذا كان بقاء هذا الاستقلال المادي في البائنة التي كان يقدمها الأب لابنته دليلاً بما يكفي على ذلك.

فالأب كان ملزماً بتجهيزه ابنته، وكان على إخوتها، عند موت الأب، الالتزام بإحضار بائنة لها حال زواجها، وتحريرها إذا كانت في خدمة شخص آخر رهناً لدَيْن على الأب، وإن فشلوا في ذلك كان في استطاعة الدائن الزواج منها ولكن بعد تحريرها، ويقام عند الخطبة احتفالٌ يصب فيه الخطيب عطوراً على رأس الفتاة، ويقدم لها الهدايا من الحلي، ومنذ هذه اللحظة تلزم بيت حماها، وإذا مات الخطيب فعليها أن تتزوج من أحد إخوته البالغين أو الأحفاد اللائقين، وإن لم يوجد وفي حالة موت حموها فلها العودة لبيت الأب، على أن يرد جميع الهدايا عدا المواد الغذائية، ومن المستطاع كذلك فسخ الخطبة مع رد الهدايا، ولم يكن من حق الخطيب الزواج بإحدى أخواتها، في حالة موتها، كنوع من الاستبدال. وفي بعض الأحيان كانت المرأة المتزوجة تسكن في بيت أبيها، ويلتزم هنا الزوج بدفع حصة في نفقات البيت ويحتفظ لها كذلك بصداق وتصبح متضامنة معه في كافة التزاماته، ويدفع لها مؤخراً يصبح ملكاً لها في حالة الطلاق، وحين تذهب الزوجة لتعيش في بيت زوجها، فإن

بائنتها وكل ما أحضرته من بيت أبيها وكل هداياها يصبح من حق أولادها، ولا حق لإخوة الزوج فيه (**انظر بورت** 1997: 289-290).

ولا بد من الوقوف عند موضوع حصول المرأة على «البائنة» كهبة من والدها، والتي كانت تمثل حصتها في ميراثه عند زواجها، وكذلك يمكنها أن تحصل عليها في حال تحولها إلى كاهنة، هذه البائنة شكلت الحماية الاقتصادية الأهم للمرأة، والتي عززت من مكانتها الاجتماعية؛ فقد كان يحق لها أن تتصرف بها كما تشاء وتبقى باسمها دون أن يحق للزوج تحويلها لاسمه، ويرثها أبناؤها، وإن لم يكن لها أبناء، فإنها إن ماتت تعود البائنة إلى أبيها، وكذلك هبة الزوج لها من ممتلكاته على حياته؛ وذلك لمنع الأولاد من الاستيلاء على حصتها. وفي العصر البابلي الحديث كانت المرأة تستطيع أخذ هديتها بعد وفاة زوجها إن أرادت الزواج من آخر، ولكن في حال وفاتها يوزع ميراثها من كل زوج على أبنائه، في حين توزع بائنتها من والدها على كل أولادها من الزوجين، وهذا يدل على أن ما تأخذه المرأة من زوجها أو والدها يبقى في تصرفها وتحت اسمها من دون أن يتم الخلط بينهما، ما يمنح حماية اقتصادية مهمة جدّاً للمرأة، وهو ما يعلّل أيضاً سبب منح الابنة هبة من الأب، إن كانت ستصبح كاهنة، فهي ستُحرم من بائنة الزواج بتحولها لكاهنة.

وكان مجتمع وادي الرافدين متشدّداً في حماية المرأة من الاغتصاب؛ إذ كان يحكم على مغتصبها بالموت إن ثبتت عليه الجريمة، وكان هناك نوع من تقديس مؤسسة الزواج؛ فالزوجة التي تزور مسكن عشيقها يحكم على كليهما بالموت، والتي تمارس الرذيلة في مواخير تُترك لعقاب الزوج على أن يعاقب العشيق في حال علمه بأنها متزوجة، وكان من حق الزوج العفو عن الاثنين، وفي حال قيام الزوج باتهام زوجته بالزنا وثبت أنها بريئة، فإنه يعرض نفسه للعقاب الذي يصل إلى حد الموت، وفي حال قيامه بذلك، أثناء الشجار، فإنه يعد ظرفاً مخففاً إذ يعاقب القاذف بخمسين ضربة عصا، ويؤدي عملاً شاقّاً لمدة شهر في السخرة الملكية، ويدفع وزنه رصاصاً ويشوه تشويهاً واحداً (**انظر بورت** 1997: 291-292).

أما فيما يخص عملية تبني الأولاد، فكان ذلك ممكناً أمام الكاهنة لانتقال الثروة، أما المتزوجة فإن لم يكن بإمكانها الإنجاب فيمكن أن تقدم لزوجها جارية تنجب له أولاداً ويستمر ميراثه فيهم.

«ومع أنه من المعروف في حضارة وادي الرافدين أن المرأة الزانية تعاقب بالقتل، إلا أن ذلك يكون بناءً على موافقة زوجها، فكان من حقه أن يعفو عنها، وأن يطلقها دون أن يدفع لها صداقها، أو أن يعتبرها أمَة؛ أي يحرمها من حقوقها كحرة» (**عقراوي** 1978: 144).

وكان للمرأة من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه، فإذا غاب زوجها، ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها، قامت بإدارة المزارع كما تدير البيت، وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها، وأن تحتفظ بعبيدها، أو أن تطلق سراحهم.

«وكان بمقدور المرأة الحرة أن تتزوج من عبد، وكان الأولاد يولدون أحراراً تبعاً للأم، وهي ميزة كبيرة افتقدتها حضارات كثيرة» (**بورت** 1997: 72).

واللافت أيضاً أنّ الابنة التي ليس لها إخوة ذكور، فإنّها تحجب الميراث عن أقارب أبيها، فهناك نص تشريعي صريح: «**إذا توفي رجل ولم يخلّف أولاداً فابنته سوف تحصل على ميراثه**» (**عقراوي** 1978: 129).

وفي العهد الآشوري كانت المرأة تتحمل مسؤولية ديون زوجها بالتضامن، بينما كانت القوانين البابلية تسمح للمرأة بأن تأخذ منه تعهداً بأنها ليست مسؤولة عن الديون المترتبة عليه قبل الزواج.

وفي الطلاق كان للمرأة حقوق تساوي قيمة المهر في حال كان طلاقاً بلا أسباب، بينما تغافلت القوانين الآشورية عن تحديد مقدار للمهر عند الطلاق. واللافت حقيقة هو تعدد أنواع الطلاق، فهناك الطلاق المتفق عليه، والطلاق التعسفي، والطلاق بسبب الخيانة، والطلاق بسبب الهجران أو المرض، ومع أن الرجل احتفظ بحق أعلى في الطلاق إلا أنه، وفي الوقت ذاته، تمت حماية الزوجة، وخاصة في حالة الطلاق التعسفي من غير سبب مع وجود الأولاد، حيث يتم طرد الزوج من البيت وحرمانه من أملاكه.

فالقوانين السومرية والبابلية، وإن لم تمنع الرجل من طلاق زوجته التي له منها أولاد، لكنها وضعت في طريقه بعض الصعوبات للموازنة بين إرادته وبين مسؤوليته في سبيل ضمان عيش زوجته المطلقة وأولادها، إذ تنص المادة التاسعة والخمسون من قانون اشنونا على أنّه «**إذا طلق رجل زوجته بعد أن ولدت منه أولاداً، وأخذ زوجة ثانية فسوف يطرد من بيته وتقطع علاقته بجميع ما يملك، وليذهب إلى من يؤويه**» (**عقراوي** 1978: 105).

«في حالة غياب الزوج لأكثر من خمس سنوات، تمنح الزوجة ‹لوحة الترمل›، وتستطيع الزواج في بداية السنة السادسة، وإن عاد الزوج الأول وبرر غيابه يستطيع استعادتها على أن يقدم للزوج الثاني بديلة عن زوجته، وفي حال وقوع الزوج أسيراً لدى العدو تتربص الزوجة بنفسها عامين دون زواج، فإذا كانت من موظفات القصر، فإنه يقدم لها الطعام مقابل الخدمة، أما إن كانت امرأة من الشعب ولا عائل لها، فتتقدم إلى المحكمة بالتماس ليخصص لها كوخاً وقطعة أرض لإعالتها. وكانت الأرملة بعد موت الزوج تعيش مع أولادها، وكان عليهم إعالتها إن لم يكن قد ترك لها شيئا في صك مكتوب، وإن كانت زوجة من زيجة ثانية ولم يكن لها أطفال، فإن أبناءها من الزواج الأول هم الذين يعولونها، ولكن إن كان لها أطفال ولم يرد أولاد زوجها من الزواج الأول التكفل بها، فإنها تقوم بخدمة أبنائها مقابل طعامها. وحين تتزوج الأرملة من زوج ثان، فإن كل ما يأتي به يصبح ملكاً لها إن أتى ليعيش في بيتها، أما إن كانت الأرملة هي التي تنتقل إلى بيت زوجها الثاني، فإنها تفقد حقوقها فيما تملك مما أتت به لبيته» (**بورت** 1997: 291).

«في شريعة حمورابي مُنحت المرأة نصف أملاك زوجها من أجل العناية بأطفالها حتى البلوغ، وبالمقابل تغافلت القوانين الآشورية عن موضوع الأطفال بتاتاً وتركتها لمشيئة الأب، وكأننا نرى مع تقدم العهد البابلي نحو نهايته ومع العهد الآشوري انزياحَاً في الحقوق المدنية للمرأة بشكل واضح» (**عقراوي** 1978: 113).

وكان يُنظر إلى الإجهاض كجريمة تصل عقوبتها للموت، حسبما ورد في قوانين حمورابي وقوانين الفترة الآشورية الوسطى؛ إذ إن عقوبة التسبب في موت امرأة حامل ازدادت تشدّداً؛ ففي قوانين آشور الوسطى يجب أن يموت المعتدي نفسه، بينما في شريعة حمورابي يحكم على ابنته بالموت. أما التشريع الذي لا سابق له في شريعة حمورابي ويعكس، للمرة الأولى، الطبيعة السياسية في القوانين الآشورية الوسطى، فيكمن في النص الذي يقول: «**إذا سببت المرأة الإجهاض لنفسها واتُّهمت وبُرهن ذلك، فإنها تُخوزق ولا تدفن**» (**ليرنر** 2013: 237). ما يعكس بالتأكيد اعتبار حق التخلّي عن الأبناء مُلكاً للزوج فقط، وليس للزوجة أن تقرر ذلك.

وفي مسألة لباس المرأة، ظهر الفرز الطبقي من خلال نوعية الثياب والمجوهرات والحلّي، وتمتعت النساء من الطبقة الملكية بالرفاهية العالية التي ظهرت من خلال أدوات الزينة المذهبة والمطعمة باللازورد، والتي عُثر عليها في القبور الملكية.

وأشار ديورانت «إلى أن المرأة السومرية الموسورة استخدمت الأساور والقلائد والخلاخيل والخواتم والأقراط كزينة» (**ديورانت ج2** 1988: 15).

ويتصل باللباس حجابُ المرأة، والذي ينتشر بشكل واسع في المجتمعات الإسلامية المعاصرة؛ إذ إن قراءة الأسطورة القديمة بعين تأويلية تكشف اللثام، عنه وتسلط الضوء على تاريخه ومدلولات نشوئه واعتماده، فما حدث من «انقلاب ذكوري» على المرأة وهيمنة الرجل عليها اقتصادياً وجنسانياً، قاد إلى فرز طبقي للنساء، حيث تمّ الربط بين الطبقة والخدمات الجنسية التي تقدمها المرأة (stol 1995: 124).

وهذا ما ظهر بشكل واضح في التشريعات الآشورية التي قوننت الجنس للمرأة، حيث ميّزت اجتماعياً ما بين المرأة الحرة والمرأة الجارية أو البغي، بواسطة غطاء الرأس.

وتنص إحدى مواد القانون الآشوري على أنه «**يمنع على زوجات السادة والأرامل والنساء الآشوريات اللواتي يخرجن إلى الشارع كشف رؤوسهن، ....، إن محظية تخرج إلى الشارع مع سيدتها يجب أن تحجب نفسها، إن عاهرة مقدسة تزوجها رجل يجب أن تحجب نفسها في الشارع، ولكن واحدة لم يتزوجها رجل يجب ألا تحجب العاهرة نفسها، يجب أن يكون رأسها سافراً**» (**ليرنر** 2013: 264).

ويتابع النص التشريعي: «**إن الذي يرى عاهرة محجبة يجب أن يعتقلها، ويحضر شهوداً ويأخذها إلى محكمة القصر، يجب ألا يأخذوا مجوهراتها ولكن الذي اعتقلها يمكن أن يستولي على ملابسها، يجب أن يضربوها خمسين مرة بالعصا ويسكبوا القار على رأسها**» (**ليرنر** 2013: 264).

إذن، «كانت الحرة تخرج وهي ترتدي غطاءً للرأس، وكان ذلك أمراً إلزامياً لتمييز المرأة الحرة عن الجارية التي لم يكن لها الحق في وضع غطاء للرأس إلا إذا أراد زوجها رفعها لمرتبة الزوجة، ويقوم بوضع الغطاء على رأسها أمام خمسة أو ستة شهود قائلاً: ‹**هذه هي زوجتي**›» (**بورت** 1997: 291).

والغطاء للرأس، كما يتضح، يعبّر عن رمزية اجتماعية لتمييز المرأة الحرة عن الجارية، ولم يكن يحمل أي مضامين دينية، كما في الديانات التوحيدية اللاحقة، ولم يميز هذا القانون بين المرأة الحرة والأَمَة، وحسب، وإنما بين المتزوجة وبين العاهرة، ولم يكتف بذلك بل من يرى عاهرة تتحجب يجب أن يعتقلها ويحضر شهوداً ويسوقها إلى المحاكمة، وهو ما يجعل العاهرة إنسانة ذات مرتبة متدنية، ولا يحق للرجل أن يمارس معها نشاطاً ظاهريا مجتمعياً، بل هي فقط للمتعة كأي سلعة، وهذا ما يزال في العصر الحالي حاضراً في تصنيفات مجتمعية باتت راسخة، رغم التحرر الظاهري من العبودية.

«ومع هذا القانون الآشوري رقم 40 تولت الدولة السيطرة على الجنسانية الأنثوية، التي كانت قد تركت لأرباب الأسر والأفراد أو مجموعات القرابة، ومن سنة 1250 ق.م فصاعداً، من التحجيب العلني، إلى قوننة الدولة لتحديد النسل والإجهاض، وكانت السيطرة الجنسية على النساء سمة جوهرية للسلطة الأبوية» (**ليرنر** 2013: 273).

ب- على الصعيد الثقافي

«كانت الكتابة أهم ما خلّفه السومريون، ولقد كان من حسن الحظ أنهم لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب القصير الأجل، بل كتبوا على الطين الطري ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالإسفين، وكانوا في ذلك جد مهرة، فاحتفظوا بسجلات العقود والمشارطات والوثائق الرسمية، وسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية والبيوع، وخلقوا من هذا كله حضارة لم يكن فيها القلم أقل قوة من السيف، وكان الكاتب إذا أتم ما يريد جفّف الطين في النار، أو عرّضه للشمس فجعله محفوظاً أبقى على الدهر من الورق، وكانت نشأة الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية» (**ديورانت ج2** 1988: 34).

«وكان الكهنة يُعلّمون الناس العلوم ويلقنوهم الأساطير، وما من شك في أنهم كانوا يتخذون من هذه الأساطير سبيلاً إلى تعليمهم وإلى حكمهم والسيطرة عليهم، وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم

فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب، ويُعدُّون بعضهم للمهنة العليا، مهنة الكتابة» (**ديورانت ج2** 1988: 31).

«وكان من اللافت في الحضارة السومرية تميُّز المرأة وتخصصها في مهنة الكتابة؛ إذ تشير بعض النصوص المسمارية إلى أن التعليم لم يكن مقتصراً على الذكور، بل شمل كذلك الإناث أيضاً، وكان بإمكان بعضهن التعلم ليصبحن كاتبات متمرسات فيما بعد، بكل ما يعنيه ذلك من صعوبات أبرزها انخراط الإناث في سلك التعليم، ومشاركة الذكور في هذا المضمار بشكل واسع، بالإضافة إلى تكاليف الدراسة وأجورها الباهظة، وقد نالت بعض النسوة نصيبهن من التعليم أسوة بالرجال، كما تبين أن أعداد الكتبة في بلاد الرافدين كان كبيراً، وهو ما يؤشر لحالة حضارية متطورة للمجتمع شكّلت حضوراً متميّزاً في خارطة بلاد الرافدين القديمة» (**الجميلي** 2005: 89).

بيْد أن بعض الباحثين أشار إلى أنه كانت هناك لهجة أساسية من لهجات السومرية تدعى (إيميسال)، وتعني لغة النساء، وهي لغة تتميز عن الشكل الشائع، وجرى تكرارها على شفاه النساء وتعتبر أكثر تناسباً معهن، وتكررت الإيميسال في الملاحم والصلوات وبعض التراتيل، فكانت تستخدم لكلام النساء والإلهات، وكذلك كلام عبيدهن الذين كانوا خصياناً في العادة (**ساكز** 2009: 118).

وذكرت م. ستول أن لهجة (إيميسال) استخدمت في النصوص الأدبية عند النساء، ومن قبل الرجال في الجنائز والرثاء (stol 1995: 125).

«وهيّأت هذه الظروف لظهور ‹إنخيدوأنّا› (2300-2225 ق.م) (enchedu-anna) أول شاعرة في التاريخ وواحدة من أعظم شاعرات العالم القديم، وقد تولت هذه الكاتبة أرفع منصب ديني في الإمبراطورية، وهو (الكاهنة العليا للإله سن في أور). فهي وليدة أول إمبراطورية في التاريخ (2334-2145 ق.م)، وهي فترة وصفها الماجدي بأنها (لا بابلية ولا آشورية) تميزت بأدبها الذي شكّل مفصلاً ما بين الأدب السومري والأدبين البابلي والآشوري، والشاعرة كانت تكتب معظم قصائدها باللغة السومرية التي تعتبرها بمثابة اللغة المقدسة (اللاتينية) وقد وصفها الكاتب وليام هالو بشكسبير الأدب السومري» (**الماجدي** 2013: 214-217).

«وكذلك ترد في نصوص هذا العصر إشارات إلى زوجة الملك (أور نمّو - حاكم سركا sirka 2113 ق.م) التي ربَّما كانت كاتبة في أدب المراثي عندما كتبت مرثية لزوجها، وأقامت مناحة كبيرة على موته في المعركة؛ كذلك يشار إلى زوجة الملك (شولكي sulgi) التي ربَّما كانت كاتبة أيضاً، وهي التي ألّفت مقطوعة (هدهدة الطفل)؛ وورد ذكر الكاتبة (nin. sata. prada) في النصوص، وهي التي وردت الإشارة إليها بصفتها كاهنة للعالم السفلي، كما أن ابنة (سين-كاشد sin-kaid) حاكم مدينة الوركاء في حدود (1865-1833 ق.م) كانت كاتبة؛ فقد قامت بإرسال رسالة إلى ملك لارسا (ريم-سن rim-sin) (1822-1763 ق.م)، تطلب فيها من الملك

وجيشه الرحمة، وأن هذه الطريقة المهذبة في التعامل مع المواقف العسكرية الحرجة، أصبحت موضوعة دراسة الأجيال اللاحقة من الكتبة فيما بعد» (**الجميلي** 2005: 90).

وبقيت مهنة الكتابة من المهن المهمة والمتميزة في الحضارة البابلية والآشورية، لا سيما أن العصر البابلي كان عصر نشاط التأليف والترجمة والنسخ للتراث القديم.

في العصر البابلي جاء ذكر العديد من «الناسخات»، كما تطلق عليهن عقراوي، «من ضمن الموظفين التابعين إلى الدير فيما عرف بـــ (gagum-cloister) وكانت معظم الناسخات كاهنات من صنف ‹ناديتو›، ومن هذه الناسخات:

1- إنانا-آمامو (inanna-amamu): ذكرت هذه الناسخة في عدد من النصوص التي تعود إلى زمن بنتاخون أيلا، وهو أحد حكام مدينة سبار، قبل أن يضمها ملاك سلالة بابل الأولى، وجاء آخر ذكر لها في زمن الملك (سومو-لا-ايل) (1880-1845 ق.م) وتذكر أحد هذه النصوص أن والد هذه الكاتبة (أبا-طايم abba tabum) كان كاتباً أيضاً.

2- شآت-آيا (sat-aja): ذكرت في عهد الحاكم ايميروم أولا، ثمَّ في زمن الملك سومو-لا-ايل أيضاً.

3- نن-آزو (nin - azu): ذكر اسم هذه الناسخة في زمن الملك سابيؤوم (1844-1831 ق.م).

4- آمات-شمش (amat - samas): وردت الإشارة إليها من عهد الملك (آبل-سن apil - sin) (1830-1813 ق.م).

5- مانا (mana) ذكرت من عهد الملك (سن-مبلّط) (1812-1793 ق.م).

6- آيا توم (aiatum): ورد اسمها من عهد الملك سن-مبلط أيضاً.

7- آمات-مامُو (amat-mamu): خدمت هذه الناسخة لمدة تناهز 40 عاماً، إذ عاصرت حكم ثلاثة ملوك هم: حمورابي (1792-1750 ق.م) وسامسو-ايلونا (1749-1712 ق.م) وآبي-ايشو (1711-1684 ق.م).

8- وكذلك ورد ذكر اسم الكاتبة (آيا-كوزوب-ماتم) (aja-kuzub-matin) في نص واحد يعود إلى عهد الملك سامو-ايلونا» (**عقراوي** 1978: 201).

واللافت أنّ الكاتبات النساء كنَّ متميزات، حيث أتت أسماؤهن من بين الموظفين المسؤولين عن أرزاق القصور؛ فهي مهنة مرموقة تعكس تميزاً للمرأة في اكتسابها الخبرة والتعليم والثقة لتعمل ضمن نطاق القصور. وقد أشارت عقراوي إلى أنّ عدم السماح للكاهنة ناديتو بإنجاب الأولاد سمح لها بأن تأخذ وقتها في التعلم.

«كما وردت الإشارة إلى بعض من الكاتبات في نصوص ماري من دون ذكر أسمائهن؛ إذ جاءت صيغة الإشارة إليهن بـــ (sinniat -dub- sar)؛ أي النسوة الكاتبات، وكما هو الحال في مدينة سبار أيضاً، فإن الكاتبات كنّ يقمن بإنجاز تدوين وثائق النساء الأخريات في مجتمعهن، وجاء في النصوص المكتشفة من موقع شاغار بازار(chagar bazar) ذكر لكاتبة تدعى (a-bi libura)؛ إذ أشير إلى هذه الكاتبة مع بعض الموظفين الذين استلموا الأرزاق من القصر الملكي في عهد (يسمح-أدد) (1796-1780 ق.م)، ومن الأسماء اللامعة للكاتبات، خلال هذه الفترة أيضاً، برز اسم الكاتبة (ama-dug-ga)؛ إذ تردد اسمها في عدد من النصوص والرسائل الاقتصادية من زمن الملك (شمشي-أدد) والملك (زمريلم) ولذا يحتمل أن تكون هذه الكاتبة قد عاصرت حكم هذين الملكين، وعاشت القسم الأول من حياتها في مدينة آشور خلال عهد شمشي-أدد ثمَّ انتقلت إلى خدمة الملك زمريلم في ماري بعد ذلك؛ فقد عرفت هذه الكاتبة بأختامها التي تحمل اسمها، كما ورد ما يفيد أن جناح بيتانُ، وهو الجناح الخاص بحريم الملك، يُعدّ من أهم أجنحة القصور الملكية الآشورية كان يضم من بين الموظفين المهمين فيها كاتبة الملكة لتغطية مراسلاتها وتنظيم تدوين الوثائق الخاصة بأملاكها. ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن عدداً من الكاتبات ساهمن في كتابة النصوص المعجمية، كما ظهرت بعض الكاتبات مثل زملائها الكتبة شاهدات في العقود؛ إذ كن يشهدن على بعض العقود وخاصة تلك التي يكتبنها بأنفسهن» (**انظرالجميلي** 2005: 89-92).

وعلى الصعيد الفني، مارست المرأة العزف والغناء، فالمعروف أن الموسيقى وآلات الطرب هي إحدى إبداعات وادي الرافدين؛ فقد استعمل العراقيون القدامى الموسيقى للتعبير عن مشاعرهم في مجالات مختلفة، منها الاحتفالات الدينية والدنيوية. وشاركت المرأة في هذا المجال ابتداءً من عصر فجر السلالات، وحتى أواخر الأدوار الحضارية القديمة في وادي الرافدين.

وعكست الأختام واللقى الأثرية مشاركة المرأة في الأدب وفي العزف والغناء على الآلات في مختلف عصور حضارات وادي الرافدين، وكانت مهنة العزف، وخاصة لعازفي المعابد، تعد من المهن المرموقة، وإلا لما ذُكر تميز الملك شولكي ثاني ملوك سلالة أور الثالثة بإجادته العزف والغناء وهو الملك.

«كان في المجتمع العراقي القديم صنفان من الموسيقيين، صنف تابع إلى المعابد لإحياء الحفلات الدينية، وهم عبارة عن طبقة خاصة من الكهّان مدربين، ومنهم كاهنات يعزفن وينشدن أيضاً. أما الصنف الآخر، فهم من الموسيقيين التابعين للقصور الملكية، ومعظمهم من العبيد والخدم» (**عقراوي** 1978: 205).

وتذكر عقراوي العديد من القطع الآثارية التي نقشت عليها المرأة تعزف وهي عارية أحياناً، وعلى آلات مختلفة منها آلة الكنارة. وتذكر المغنية أور نانشه التي كانت من أشهر النساء الموسيقيات في عصر فجر السلالات السومرية الثالث. وتظهر في تمثالها المكتشف في مدينة مرتدية سروالاً بشعرها المجعد المتهدل على كتفيها وظهرها، وكانت ترتدي السروال؛ لأنها كانت ترقص أثناء الغناء. وتذكر كذلك حفيدة الملك الأكدي المعروف نرام سين (2254-2230 ق.م) التي تعزف على الكنارة في حضرة الإله سن إله القمر في معبده الرئيس في أور (**انظر عقراوي** 1978: 206).

ج- على الصعيد الاقتصادي

كانت المرأة في تاريخ العراق القديم تتمتع بقسط كبير من الحرية الشخصية، وكان لها حقوق وامتيازات أقرها القانون والمجتمع، وقد أشرنا من قبلُ، إلى كون البائنة التي كان يقدمها الأب لابنته عند زواجها أو عند تقديمها لتكون كاهنة هي دلالة على استقلالية مادية ساعدتها على الاحتفاظ بمكانة متميزة وحضور قوي في التعاملات الاقتصادية من بيع وشراء وحق التملك، ولا يخفى أن المرأة بقيت تحتفظ بتميز في المكانة الاقتصادية مما ورثته من العصور السابقة، والتي كانت فيها المنتجة الأولى في عملية الثورة الزراعية، وصاحبة الأملاك من عائدات المعبد كواحدة من أهم العاملين في الحقل الديني.

وتشير عقراوي إلى كون «المرأة مارست حرية البيع والشراء دون تأثير أو تدخل كبير من الأب أو الزوج في معاملاتها الخاصة، ومنحت كذلك قدراً كبيراً من الحرية الإجتماعية؛ فكان للنساء الحق المطلق والقدرة الكاملة على ممارسة الحياة الاجتماعية، وهناك العديد من النصوص التي تشير إلى أن النساء السومريات كنَّ يمتلكن العبيد والإماء ومساحات من الأراضي وعدداً من الماشية وكميات من النقود، وكان للزوجة في ذلك العصر حق التصرف بأموالها المنقولة وغير المنقولة، فلها الحق في شراء ما تريد وبيع ما يعود لها، وكان للمرأة حق رفع الدعاوى والظهور كشاهدة في المحاكم وممارسة التجارة، كما كان لها أختام خاصة تستعملها في المعاملات» (**عقراوي** 1978: 34).

لقد أدت المرأة دوراً مهمّاً من خلال حكمها كملكة أو أميرة ومن خلال منصبها ككاهنة، وحفلت الآثار بمراسلات تحمل أسماء ملكات وأختامهن، ويشير العديد منها إلى امتلاكهن العبيد والأراضي والتجارة، وحتى تجارة الخمور.

وتسلط عقراوي الضوء على الملكة «شيبتو ابنة بارملم زوجة زمريلم التي زوجها أبوها إليه بعد أن استطاع بمساعدته استرجاع عرشه، وكانت متميزة في الحكم والإدارة، وخاصة في خلافة زوجها وهو يدير شؤون الحرب. أما الأميرة ايلتاني، فهي كاهنة من صنف ناديتوم، وكانت تملك مساحات كبيرة من الحقول، بل وحتى إنها كانت تستأجر حقولاً مجاورة وتقوم باستغلالها» (**عقراوي** 1978: 247).

«وتمتعت الزوجة بشخصية مدنية أكثر اتساعاً خاصة في العهد السرجوني، مثلما ورد في النصوص عن ‹أمات سولا› المرأة التي تملّكت بيتاً بالاشتراك مع رجلين وباعته دون تدخل من الزوج، وكانت تشتري الجواري واقترضت ورهنت، كما كان من حقها شراء وبيع العبيد والظهور بين المتقاضين» (**بورت** 1997: 291). وهذا يدل على كونها شخصية اعتبارية لها مساحة من الاستقلال المادي، ويعكس كذلك طبيعة الممارسات التجارية التي تمكنت المرأة من مباشرتها بنفسها آنذاك.

أما على صعيد ممارسة الأعمال، فقد توزعت الأعمال التي مارستها المرأة على نوعين: الأول يتعلق بواجباتها المنزلية كأم وزوجة، والآخر ما كانت تمارسه خارج نطاق العائلة.

«وتبدأ واجبات المرأة في البيت منذ زواجها وحملها، وكانت الولادة وما تزال من أقسى التجارب التي تتعرض لها المرأة في حياتها، وظهر اهتمام سكان وادي الرافدين بالمرأة الحامل من عدد من التعاويذ ونصوص الفأل، فقد كان المثل السومري يقول بهذا الخصوص: ‹**الرجل المريض لا** يقلق، أما المرأة التي في المخاض فهي المريضة حقّاً›» (**عقراوي** 1978: 155). إن حاجة المجتمع إلى الأبناء كان ينعكس بشكل مباشر على قوانين الحماية للمرأة الحامل وحمايتها من طلاق تعسفي من غير سبب، والذي كان بمثابة جريمة يعاقب عليها الزوج.

أما المهن التي مارستها المرأة العراقية خارج نطاق العائلة، فكان منها غزل الصوف ونسجه، وطحن الحبوب وتربية الحيوانات، كما قام قسم من النسوة بمساعدة الرجل في الحقل. ومن اللافت، كما سلف، أن أجرة المرأة التي كانت تتقاضاها من تأدية مثل هذه الأعمال كانت مساوية لأجرة الرجل، وهو حقّ لم تستطع المرأة المعاصرة نيله إلا بعد صراع مرير.

وسنّت تلك الحضارة قوانينَ لحماية المرأة، وهيأت لها مكاناً بارزاً وأعطتها مكانة مرموقة في المجتمع السومري؛ ففي مدينة لجش كان منهن كاهنات ومنهن من استلمن مناصب إدارية وتجارية ودينية، وخير مثال المصلح الاجتماعي (أوركاجينا) الذي أبرز مكانة المرأة، وزوجته (شاشا) هي التي كانت تشرف على مراكز تجارية ودينية، وهي التي أقامت مراسيم دفن عظيمة لـــ (بارنمتارا barnamtarras) زوجة الحاكم السابق (لوكالاندا) حضرها عدد كبير من النساء والرجال، مما يشير إلى سموها وعظمة مركزها الاجتماعي (**عقراوي** 1978: حواشي 33).

«وكانت حياة نساء الطبقات العليا مترفة، ففي قبر الملكة (شبو - آد) عثر على دبابيس من الذهب رؤوسها من اللازورد، وخواتم من الذهب المرصع باللازورد وأدوات تجميل» (**ديورانت ج2** 1988: 33)، فضلاً عن أن العبيد كانوا يدفنون معها أحياء عند رحيلها.

ح- على الصعيد السياسي

ساهمت المرأة في الحياة السياسية والإدارية، وحكمت لمدة طويلة، كما تقلدت عدد من النسوة في وادي الرافدين مركز (حاكم مقاطعة)، وكان أغلب هؤلاء من الأميرات زوجات أو أخوات الملوك، وكانت الحاكمة تسيطر عادة على عدد من المدن والقرى وتحكم باسم الملك. وحكمت بعض الملكات بدل أزواجهن أو أبنائهن عند ذهابهم إلى الحروب أو عندما كانوا صغار السن. وجرى التنويه سابقاً إلى أن التوسع وامتداد النفوذ قد تم بعملية تبادل النساء كما أشار إليه ليفي ستروس؛ فالنساء كنَّ قادرات على التلاؤم مع القبائل الجديدة اللواتي ينتقلن للعيش فيها، ويستطعن إنجاب الأبناء وجَعْل ولائهن للقبيلة التي تنحدر منها الأم.

«في العهد السابق للسرجونية، كانت توجد إلى جانب الأمير زوجة لها أملاك واسعة تديرها بنفسها، ولها قصرها الخاص وتشترك في تصريف شؤون الدولة» (**بورت** 1997: 70).

«وكان للمرأة دور فعال في قيادة الدولة، ومن هذه النساء الأميرة السومرية (ديم باندا) زوجة الحاكم السومري (انسيتارزي) حاكم لجش (2384 ق.م) والأميرة (بارنمتارا) زوجة لوكالاندا، والأميرة شاشا زوجة أوركاجينا، حيث قامت هؤلاء النسوة بالإشراف على إدارة وتصريف الأمور التجارية الواسعة النطاق في دويلة لجش، وقد كانت (ديم باندا) تترأس الاحتفالات الدينية التي تقام في كرسو، وإن هؤلاء النسوة كنّ يحافظن على مراكزهن المقدسة حتى بعد زوال حكم أزواجهن. ويعطينا التاريخ صورة مشرفة عن الملكة (كوبابا) التي حكمت على عرش مدينة كيش (2420 ق.م)، وحكمت لمدة 100 عام[2]، وأعطت هذه الملكة دوراً فعالاً لمملكة كيش، وكانت تحظى بشعبية كبيرة من قبل سكان المملكة لإدارتها الناجحة لسياسة الدولة الداخلية والخارجية» (**عقراوي** 1978: 202).

ومن النساء الشهيرات في العراق القديم الملكة (بو-أبي) زوجة الملك آبار- كي أحد ملوك سلالة آور الأولى سنة (2650 قبل الميلاد). اشتهرت هذه السيدة السومرية بمقبرتها المكتشفة في أور الكريمة وكذلك الضحايا البشرية التي رافقتها إلى مقبرتها والمؤلفة من حاشيتها وخدمها وحرسها بألبستهم الكاملة وأسلحتهم وعرباتهم وعددهم تسعة وخمسون شخصاً. وقد تكون شبعاد وزوجها أبار- كي من ضحايا طقوس وشعائر الزواج المقدس الذي كان يمارس سنوياً في مرحلة مبكرة من التاريخ السومري، ليعم الرخاء والخصب في البلاد (**انظر عقراوي** 1978: 216-217).

«أما في الإمبراطورية الآكدية ومؤسسها الملك سرجون الآكدي (2371-2200 ق.م)؛ فقد كان للمرأة أيضاً دور فاعل في إرساء هذه الإمبراطورية وسبل نجاحها، فقد قام الملك الآكدي سرجون ببسط نفوذه على المدن السومرية الشهيرة أور والوركاء بواسطة ابنته الكاهنة (**إنخيدوأنّا**) التي كانت تتمتع بأساليب دبلوماسية

2 - «هناك اختلاف على سني حكم هذه الملكة، فبالرغم من أن جداول الملوك تدعي بأنها حكمت مئة سنة إلا أن الاثباتات التاريخية تشير إلى أنها حكمت ما يقارب ثلاثين عاماً» (عقراوي 1978: 202).

وتفاوضية لقيادة الدولة. واسم (إنخيدو أنّا) اسم سومري ومعناه (الربة زينة السماء) وقد تسلمت منصب كاهنة عظمى للإله-القمر ننّا في مدينة أور الجنوبية الناطقة بالسومرية، وكان هذا منصباً مهيباً يعطي حامله نفوذاً عظيماً على المدينة وسلطات المعبد. وقد نصب حفيد سرجون نرام سين ابنته كاهنة عظمى في أور» (**ساكز** 2009: 108).

«وعرف العالم الكلاسيكي وكتاب اليونان الملكة الآشورية **سومو رامات** (محبوبة العالم) باسم **سميرأميس** وكانت زوجة للعاهل الآشوري شمشي- أدد الخامس (822-811 ق.م) الذي حكم الإمبراطورية الآشورية من عاصمته نمرود (كالح). وعند وفاته كان ابنه أدد-نراري الثالث (811-783 ق.م) قاصراً لم يبلغ سن الرشد بعد، كما سبق ذكره، فتولت السلطة نيابة عنه والدته سمو رامات ولمدة خمس سنوات. قلدت سمو رامات الملوك الآشوريين العظام بإقامة مسلّة لشخصها تخلد ذكراها في ساحة المسلات في معبد الإله آشور في العاصمة المقدسة آشور(قلعة شرقاط) التي اكتشفتها بعثة التنقيب الألمانية في مطلع القرن العشرين وبرئاسة المنقب والتر أندريه جاء فيها:

‹مسلة سومو رامات ملكة (حرفياً: سيدة القصر) شمشي أدد، ملك الكون، ملك بلاد آشور، والدة أدد-نراري، ملك الكون، ملك آشور، كنة شلمنصر، ملك الجهات الأربع›» (**عقراوي** 1978: 252).

«أطلق عليها اسم سمو رامات- محبوبة الحمام: (بالآرامي شاميرام)، وهي ذاتها الملكة الأسطورية الجميلة ونسبت إليها أعمال فتوحات وبناء (منها بناء الجنائن المعلقة خطأ بالطبع) واشتهرت بحدة شهوتها وجبروتها وقسوتها، وصارت رمزاً وعنواناً لحضارات وادي الرافدين، وأشهر أسطورة نسجت حولها هي أنها ابنة آلهة، وقد عبدت في عسقلان، نصفها سمكة والنصف الآخر حمامة، وقد تخلت عنها الآلهة فأخذها طير ورباها وعثر عليها رعاة الملك وتولى تربيتها ورآها حاكم نينوى (أونيس) فأحبها وتزوجها... إلخ، وهذه الرواية الأسطورية وردت عن هيروديتس الذي استقى معلوماته عن كهنة بابل، وربما أنها أميرة بابلية تزوجها الملك الآشوري ‹شمشي أدد› فبالغوا في وصفها ووصف شهرتها كونها ‹كنة شلمنصر العظيم› وزوجة ‹شمشي أدد› الذي وحّد آشور من جديد» (**باقر، ج1** 2009: 185).

«وهناك، علاوة على ذلك، **زاكوتو** (نقية) التي تنتمي إلى إحدى القبائل السامية الغربية من بلاد آشور كانت الزوجة المحبوبة والمفضلة لدى الملك الآشوري سنحاريب (705-681 ق.م) وقد أطلق عليها زوجها اسمها الآشوري (زاكوتو) بعد الزواج، حيث كانت ‹سرية ‹عنده. ولم تكن السيدة نقية زوجة ملك اعتيادية ترضى بحياة القصور المترفة، بل استطاعت بدهائها وذكائها أن تساهم في حكم الإمبراطورية إلى جانب زوجها. وكان لها نفوذ كبير في أرجاء البلاد، وتمكنت نقية بحنكتها أن تجعل من ابنها أسرحدون (680-669 ق.م) ولياً للعرش بالرغم من أنه لم يكن الابن البكر لسنحاريب، ومن المعروف بأن سنحاريب قام بتدمير مدينة بابل عندما سلط عليها مياه النهر، وهدّم معظم معابدها وقصورها، ونقل تمثال مردوخ إلى مدينة آشور، ولذلك

فقد أخذت زاكوتو على عاتقها مهمة بناء بابل مجدداً، فقامت بإنجاز بناء معظم المعابد والقصور ومشاريع الري المهمة، وأخيراً قامت بإرجاع تمثال الإله مردوخ إلى معبده الشهير إيساكلا (esagela) في مدينة بابل» (**عقراوي** 1978: 257).

«وتعتبر الملكة آشور-شرت زوجة الملك الآشوري آشوربانيبال (668-631 ق.م) من النسوة القلائل اللواتي صُوّرن على المنحوتات الآشورية، أما والدة الملك **نبونهيد** (539-555 ق.م) أدد كوبي (adad-guppi) فقد خدمت الإله سن، ورعت معبده، وقامت بالكثير من الأعمال الصالحة، وأقام لها ابنها مسلتين تعدّدان أعمالها وترويان طقوس ومراسيم دفنها ومقدار الأسى والحزن الذي عمّ البلاد (حزناً على رحيلها)» (**عقراوي** 1978: 264).

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com